الفصل السادس والعشرون

طه حسين

مهما كانت الدعوة إلى تصدير الحضارة الغربية وتطوير الإسلام وإعادة تفسيره . ومهما كان الداعون إليها فإن إبليسهم الأكبر هو الدكتور طه حسين ، لقد حمل هذا الرجل أوزاراً إلى أوزاره وبذل جهوداً مضنية لتحقيق غرضين عاش لهما كل حياته بعد عودته من جامعة السربون بباريس ..

* أحد الغرضين هو العداء المستحكم للإسلام والعروبة ، والمحاولات الدائبة للقضاء عليهما ، وتحويل مصر إلى دولة علمانية كافرة ؟!

* والغرض الأخر : هو إحلال الحضارة الغربية محل الإسلام فى مصر وفى غير مصر من بلاد المسلمين .

صال طه حسين وجال فى تهيئة المناخ لفرض الحضارة الغربية سلطانها على البلاد ، وكان الدكتور طه حسين يعلم علم اليقين أن فى مصر ثلاث عقبات ضخمة تقف أمام الزحف الحضارى الأوروبى ، وهى :

* الإسلام نفسه وسيطرته على عقول الناس ومشاعرهم .

* الأزهر والهيئات التى يشملها : ذلك المانع المحكم والحصن الحصين والعملاق المهيب . والثقافة التى يبثها بين الناس .

* ثم العروبة واللغة العربية .

هذه هى العقبات الثلاث التى أدرك طه حسين وغيره أهميتها فى هذا المجال . ولذلك كان المنادون بالإقبال على الحضارة الغربية يحاولون المساس بهذه القيم ،

ويُجهدون أنفسهم للنَيْل منها ليمهدوا الطريق أمام الحضارة الغربية بوجه خاص وتقليص ظل الإسلام فى البلاد ، أو إبطال مفعوله تماماً إذا استطاعوا ، والدكتور طه حسين قام بالعبء الأكبر فى هذه المجالات الثلاثة ، لا فى كتبه المتداولة فحسب ، بل فى مقالاته التى كان يكتبها للصحف والمجلات ، وفى أحاديثه العامة والخاصة كذلك . ومَن يقرأ أعمال طه حسين الكاملة يلمس صدق ما قلناه بكل وضوح ويُسر . ولذلك كان من غير المستطاع تتبع كل ما قاله الدكتور طه فى التغلب على العقبات الثلاث التى أشرنا إليها . فما علينا إلا ذكر بعض النماذج من أقواله ومواقفه لتكون الرؤيا واضحة .

* *

● مواقفه من الإسلام :

أكاد أجزم بأن الدكتور طه حسين لم يخلص الولاء للإسلام لحظة واحدة من حياته المعروفة . وإذا بدا لنا هذا الإحساس - أى ولاء طه حسين للإسلام - فى بعض مواقف نادرة . فذلك لدفع قالة السوء عنه ، ولاستمالة الرأى العام ، أو - على أقل تقدير - لمد جسر وهمى بين فكره وبين المجتمع الإسلامى الذى كان يعيش فيه . أو قُلْ هو نفاق وتملق للتمويه على العقول . أما أن يكون ولاءً صادقاً للإسلام ، فهذا ما لم يقم دليل واحد على صدقه من حياة طه حسين بطولها وعرضها .

ويتلخص الموقف الجامع لطه حسين من الإسلام فى ما تضمنه كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى سبقت الإشارة إليه مرات . فى هذا الكتاب بدت السخرية من الإسلام فى مواضع متعددة . وخشية الإطالة تدفعنا إلى الاكتفاء بالأمور الآتية :

* وضع الدكتور طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » على أساس علمانى بحت . والمحور الذى يقوم عليه كتاب « فى الشعر الجاهلى » هو الشك فى كل شئ مهما كان يقينياً أو غير يقينى . وهذا ما عُرِف بمذهب الشك الديكارتى .

* طبَّق الدكتور طه حسين مذهب الشك هذا على « الشعر الجاهلى » وهو الذى كان قبل ظهور الإسلام ، وأحد عصور الأدب العربى .

* وطه حسين يعلم علم اليقين أن العصر الجاهلى له ارتباط وثيق العرى ببعض العلوم والقضايا الإسلامية ، مثل : تفسير القرآن الكريم - شرح الأحاديث النبوية - إعجاز القرآن الكريم - مسائل الفقه وأصول الفقه - اللغة العربية : أصولها وقواعدها ونحوها وصرفها وبيانها - ثم تاريخ العرب قبل الإسلام .

* ومع هذه « المسلَّمات » أو « البدهيات » فقد بنى الدكتور طه حسين كتابه المذكور من ألفه إلى يائه على الشك فى وجود الشعر الجاهلى ، وزعم أنه مكذوب مختلَق على عرب الجاهلية ، وأنهم لم يقولوه ولا علم لهم به . كما تشكك فى وجود بعض الشعراء الجاهليين ممن لهم دواوين شعر معروفة . وزعم أن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة الجاهلية فى شئ (!) .

* وزعم أن الذين اختلقوا الشعر الجاهلى وافتروه ثم نسبوه إلى عرب الجاهلية هم السَلَف من المسلمين الأوائل (؟!) .

* كما زعم أن السبب الذى دعا السَلَف إلى افتراء الشعر الجاهلى هو أن يثبتوا « عربية القرآن » وأن يستعينوا به على شرح وتأويل الأحاديث النبوية (؟!)

* *

● مقلِّد لا مبتدع ؟

وقبل أن نضع بين يدى القراء نماذج من أقوال طه حسين نحب أن نشير إشارة موجزة إلى أنه كان مقلِّداً للمستشرقين ، ولم يكن مبتدعاً هذا القول .

فقد ادَّعى هذه الدعوة المستشرق الدكتور « مرجليوث » . وسجَّل دعواه هذه فى ثلاثة مصادر :

١ - مجلة الجامعة الآسيوية الملكية عام ١٩١٦ ثم سنة ١٩٢٥

٢ - دائرة معارف الأديان والعقائد فى مادة « محمد » .

٣ - فى كتابه « محمد » المطبوع سنة ١٩٠٥ [١] .

أما دعواه : أن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة عرب الجاهلية فى شئ وإنما يمثلها القرآن . وأما الشعر الجاهلى فهو يمثل حياة المسلمين ، هذه الدعوى الماكرة الخبيثة أخذها الدكتور طه حسين عن المستشرق الإنجليزى « جب » أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد الأمريكية [٢] .

والآن نستأنف ما كنا فيه :

● تمهيد :

كان الدكتور طه حسين وهو يخط كتابه « فى الشعر الجاهلى » يدرك أن هذا الكتاب سيُسخط معظم الناس . وصرَّح بأنه لن يكترث لهذا السخط ، وأنه يكفيه رضا المستنيرين عما يقول . ويقصد من المستنيرين أولئك الداعين لفرض الحضارة الغربية على مصر ، ومنهم طلبة الجامعة فى كلية الآداب الذين تلقوا عنه مادة الكتاب فى صورة محاضرات قبل طبعه . هذا التمهيد مفيد لنا فى فهم ما سننقله عن الدكتور طه حسين فيما يأتى :

قال المؤلف فى إثبات أصل الدعوى وهى أن الشعر الجاهلى مكذوب :

١ - « فهى - أى الأشعار الجاهلية - منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ، أكثر مما تمثل حياة الجاهلية » (ص ٧) .

٢ - وقال : « وإنى أقدِّر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكنى مع ذلك لا أتردد فى إثباتها وإذاعتها » (ص ٧) .

*

---

(١) انظر : نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » ص ١٧ ، للإمام محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق .

(٢) الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٦٦ وما بعدها .

● تعقيب :

النتائج الخطرة التى أشار إليها طه حسين يمكن توضيحها فيما يأتى :

إذا كان الشعر الجاهلى مكذوباً منتحلاً بعد ظهور الإسلام ، فإن الذين قد ارتكبوا هذه الجريمة هم رجال صدر الإسلام والروّاد من العلماء والمفسرين والفقهاء وعلماء الحديث واللغة . هؤلاء العلماء هم الذين تلقينا عنهم القرآن رواية ودراية ، وتلقينا عنهم أحاديث صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، كما تلقينا عنهم السيرة والتاريخ واللغة . لأنهم رواة ثقات أتقياء ورعة . فإذا ثبت - جدلاً - ما وصفهم به الدكتور طه حسين من تزوير الشعر الجاهلى أفلا يقدح هذا فى عدالتهم وينزع الثقة عنهم ويتسرب الشك إلى أصول الإسلام التى تلقيناها عنهم .. هذه هى النتائج الخطرة التى أشار إليها طه حسين ، ومع هذا يقول : إنه لن يتردد فى إثبات نظريته (تزوير الشعر الجاهلى) وإذاعتها .. ؟! أى أنه يتعمد الإساءة إلى الإسلام ويقصدها قصداً ؟!

* *

٣ - ويقول المؤلف : « وينتهى بنا البحث إلى نتيجة غريبة ، وهى أنه لا ينبغى أن يُستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن ، وتأويل الحديث .. أريد أن أقول : إن هذه الأشعار لا تُثبت شيئاً ، ولا تدل على شئ ولا ينبغى أن تُتخذ وسيلة إلى ما اتخذت إليه من علم بالقرآن والحديث ، فهى إنما تُكُلِّفَت واخْتُرِعَت اختراعاً ليستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا (به) عليه » (ص ٩) .

٤ - ويقول : « يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه أن ننسى قوميتنا - يعنى العروبة - وكل مشخصاتنا ، وننسى ديننا وكل ما يتصل به (؟!) ننسى : ما يضاد هذه القومية ، وما يضاد هذا الدين .. ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا وديننا ، وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة ، وإرضاء هذه العواطف » (؟!) (ص ١٢) .

*

● تعقيب :

إذا جاز للإنسان أن ينسى شيئاً فلا يجوز له أن ينسى دينه مهما كانت المبررات ؛ لأن نسيان الدين (وهو هنا الإسلام) معناه أن الإنسان انسلخ عن أسباب الهداية ، وصار شيطاناً أو كالشيطان وما الذى يدعو طه حسين لينسى دينه - إن كان له دين يحترمه حقاً ؟!

الغاية هى أن يثبت أن الرعيل الأول من المسلمين كذّابون دجالون ، وهل إذا أثبت طه حسين هذه المزاعم عن طريق نسيان الدين . هل سيبقى له دين يعود إليه فيتذكره ؟!

* *

وينعى طه حسين على الرعيل الأول من المسلمين شدة حبهم للإسلام وأن حبهم للإسلام هو الذى أفسد العلم وحملهم على التزوير ؟!

يقول : « كان القدماء مخلصين فى حب الإسلام فأخضعوا كل شئ لهذا الإسلام وحبهم إياه . ولم يعرضوا لمبحث علمى ، ولا لفصل من فصول الأدب ، أو لون من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام ويعزه ، ويعلى كلمته (؟!) فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه . وما نافره انصرفوا عنه انصرافاً » (؟!) (ص١٢) .

ثم يقول : « ولنجتهد فى ألاّ نتأثر كما تأثر القدماء . وألاّ نفسد العلم كما أفسدوه (؟!) لنجتهد فى أن ندرس الأدب غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعى عليه » (؟!) (ص ١٣) .

* *

● تعقيب :

كراهية الدكتور طه حسين للإسلام بدت بكل وضوح فى هذا الكلام ، فبعد أن عاب السَلَف على حبهم الشديد للإسلام ، جعل حبهم للإسلام هو الذى أفسد العلم . وليس فى علوم الإسلام علم فاسد إلا فى أوهام تلميذ المستشرقين والمبشّرين طه حسين . ثم تراه بعد ذلك يدعو القراء كما دعا طلبة الجامعة من

قبل إلى تجنب الخطأ الذى وقع فيه السَلَف ، وهو - عنده - حبهم للإسلام الذى أفسد العلم (؟!) ثم حدد لهم منهج البحث فى أن لا يهتموا بنُصرة الإسلام أو النعى عليه أو تمجيد العرب أو الحط من قدرهم ، وكراهية الإسلام والعروبة هى المنهج العلمى السليم عند طه حسين الذى يذيعه بين الناس ويروِّج له .. تُرى ما حظ رجل من الإسلام يستهين به إلى هذا الحد ؟!

* *

● لولا مجادلة القرآن العرب ما كانت له قيمة (؟!) :

بلغ الاستخفاف بالإسلام عند الدكتور طه حسين أقصى مدى يتصوره الإنسان . ومظاهر هذا الاستخفاف متعددة ، وقد ذكرنا بعضاً منذ قليل ، وتعال معى الآن إلى مظهر آخر قبيح كل القبح من مظاهر استخفاف طه حسين بالإسلام . فهو ينظر إلى القرآن العظيم - أساس الإسلام الأول - على أنه كتاب عادى من كتب الفكر والجدل ، أو العلم والأدب من صنع البَشر ، يجيدون فى موضع ويسيئون فى آخر فيكتسب فكرهم قيمة من حيث أجادوا لا من حيث أسفُوا . تطبيق هذا أن الدكتور طه حسين نظر إلى القرآن ، وقلَّب فصوله فلم يجد فيه إلا فصلاً واحداً جعل له قيمة عند الذين عارضوه ، والذين أيَّدوه على حدٍ سواء ؟! ذلك الفصل هو مجادلة القرآن لطوائف من عرب الجزيرة سفَّه القرآن أحلامهم وعاب عقائدهم . يذهب طه حسين عميل الاستشراق والتبشير أن القرآن لو كان قد خلا من مجادلة العرب لما كانت له قيمة عند أحد من خصومه أو مؤيديه . وإليك كلام الدكتور طه حسين بالحرف الواحد :

يقول الدكتور فى (ص١٧) : « ولولا ذلك لما كانت له - أى القرآن - قيمة ولا خطر ؟! ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه أو أيَّدوه . وضحوا فى سبيل تأييده بالأموال والحياة » (؟!) .

ويترتب على هذا اللغو الباطل أن القرآن العظيم لا يحمل الآن أية قيمة

لذهاب الذين كان يجادلهم من العرب ، ولذهاب الذين وقفوا لهم بالمرصاد ليدفعوا عن القرآن كيد المعاندين ؟!

كما يترتب على هذا اللغو والعبث الشيطانى أن ما بقى من القرآن بعد الفصول التى جادل فيها عرب الجاهلية لم يكن يحمل أية قيمة لا فى عصر النزول ولا بعد عصر النزول إلى الآن ؟!

ومن حقنا أن نتساءل : ألم يقرأ الدكتور طه قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ؟ (١) .

أوَ لم يقرأ كذلك قول الحق : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (٢) ؟

إن قيمة القرآن فى كل كلمة فيه ، وهو كلمة اللّه الأخيرة إلى عباده وليس بعده كتاب . فرّق بين الحق والباطل ليهلك مَن هلك عن بيِّنة ويحيى من حىٍّ عن بيِّنة . فكيف حصر طه حسين قيمة القرآن فى جدله لعرب الجاهلية خاصة ؟ أهذا كلام يصدر عن مسلم « أُمِّى » فضلاً عن رجل يحمل درجة الدكتوراة لولا أن فى القلوب زيغاً ، وفى الآذان وقراً . وعلى الأبصار غشاوة ؟!

* *

● المستنيرون هم الكفار (؟!) :

كلنا نعرف أن الناس وقفوا من الدعوة فى عصر الرسالة مواقف مختلفة : منهم مَن آمن بها وأطاع اللّه ورسوله ، وهم أصحاب النبى ﷺ . ومنهم مَن كفر وعاند وحارب الدعوة وصاحبها والمؤمنين بها ، وهم كفار العرب . ومنهم مَن ترقب وانتظر . فإذا وضعنا أمام القارىء سؤالاً حاصله :

مَن هم المستنيرون المهتدون ذوو الفِطَر السليمة ؟! هل هم الذين سارعوا إلى

---

(١) الإسراء : ٩ (٢) المائدة : ١٥ - ١٦

الإيمان وفيهم نزل قول الحق : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (١) أم هم الذين كفروا بالله ورسوله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ؟!

إن الإجابة التى تتبادر إلى ذهن القارىء ويلهج بها لسانه معبراً عما فى قلبه : إن المستنيرين المهتدين هم الذين سارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله . وقالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (٢) هذا هو الحق .

أما الدكتور طه حسين فيقول : إن المستنيرين المهتدين هم الذين كفروا بالله ورسوله وجادلوا صاحب الدعوة فيما جاء به من عند الله ، وإليك قول الدكتور « الموتور » من الإسلام بالحرف الواحد .. قال فى (ص٢١) : « فالقرآن إذاً يمثل الأمة العربية على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة (؟!) فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبى يجادلهم ويجاهدهم (؟!) وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من استنارة أو امتياز ، والذين كانوا موضوع النزاع بين النبى وخصومه . والذين كان النبى يتألفهم بالمال أحياناً » (؟!) .

*

● همز ولمز :

النبى عليه السلام كان يجادل أبا جهل وأبا لهب وغيرهما من رءوس الكفر وهم عند طه حسين الممتازون المستنيرون (؟) أما كبار الصحابة ومَن أسرع إلى إجابة الدعوة كأبى بكر وعثمان وعلى وأبى عبيدة وعمر بن الخطاب فهؤلاء لم يكن لهم حظ من استنارة ولا امتياز (؟!) أهذا كلام يصدر عن مؤمن صادق الإيمان ؟!

ثم انظر إلى عبارات الهمز واللمز . فالعرب فى عصر النبوة كانوا فريقين عند الدكتور العميد : مستنيرين وهم الكفار ، وغير مستنيرين وهم الذين أسلموا . وهنا يهمز طه ويلمز ويقول إن النبى ﷺ كان يستميلهم بالمال أحياناً . ومعنى

---

(١) التوبة : ١٠٠ (٢) آل عمران : ٨

هذا الكلام أن يوهم طه قرّاء كتابه أن مَنْ أسلم مبكراً من العرب لم يُسْلِم لأن الإسلام جذبه إلى الإيمان بل كانوا مرتشين أسلموا طمعاً فى المال [١] ؟!

* *

● بعض ما ورد فى القرآن مردود ما لم يؤيده دليل آخر :

القرآن كله حق وصدق . هذه عقيدة المسلم الخالص الإيمان . والقرآن نفسه يقرر هذه العقيدة : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ .. ﴾ [٢] ثم : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [٣] .. أما الدكتور طه حسين فلا يرى ما يقصه القرآن من الأخبار صادقاً إلا إذا أيّده دليل آخر من خارج القرآن ؟! هكذا ورب السموات والأرض . فاسمع إلى دكتور الغرائب والأراجيف وهو يقول :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل . وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً . ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ... » (؟!) (ص ٢٦) .

*

● خطورة هذه المزاعم :

إذا كان القرآن عند طه حسين حين يتحدث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فإن حديثه لا يكون دليلاً قاطعاً على وجود إبراهيم وإسماعيل فى الزمن الذى أشار القرآن إلى وجودهما فيه : التاريخ القديم - فإنه لا يكون صادقاً - حاش لله - حين يتحدث عن نوح وموسى وهارون وإسحق ويعقوب وهود ، ويونس ، ويوسف وصالح وزكريا ويحيى وعيسى وإدريس وداود وسليمان ،

---

(١) يستغل طه حسين هنا واقعة « المؤلفة قلوبهم » وهذه مغالطة منه ، لأن المؤلفة قلوبهم نفر محدودون ، وليست ظاهرة عامة .

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٢ (٣) النساء : ١٢٢

واليسع ؟! بل وحين يتحدث عن آدم أبى البَشر نفسه ؟! هذا هو العلم الصحيح الذى يثبته طه الأراجيف ليحل محمل العلم الفاسد الذى أفسده (القدماء) أو السَلَف الصالح لأنهم أحبوا الإسلام وأخلصوا له الولاء ؟!

أليس فى هذه المزاعم - عزيزى القارىء - هدم للتاريخ النبوى كله ؟!

ثم يدَّعى - بعد ذلك - أن القرآن تأثر ببعض شعراء الجاهلية كأمية بن أبى الصلت ، وامرىء القيس ؟! وأن القرآن كان يتصيد الأساطير والخرافات ويسجلها فى آياته إذا رأى فيها مصلحة للدعوة ؟!

* *

● الهدف الذى كان يسعى إليه :

نكتفى بهذا القَدْر - الآن - من الاستشهاد بنصوص الدكتور طه حسين التى وردت فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » على مواقفه من الإسلام الذى كانت أوروبا - وما تزال - تعمل جاهدة على إزالته من حياة المسلم ، ثم جنَّدت طه ورفاقه ليقوموا بهذه المهمة من الداخل .. نكتفى بهذا القَدْر لندلف مباشرة إلى بيان الهدف الذى كان يسعى إليه طه حسين :

● بَشرية القرآن :

إنه كان يسعى للقول ببَشرية القرآن ؟! أى أنه من تأليف محمد ﷺ وليس وحياً من عند اللّه ؟! صحيح أن طه حسين لم يصرِّح بهذا - لحاجة فى نفس يعقوب - ولكنه وضع بدل الإفصاح الصريح فقرات وجملاً مَن تأملها أدرك أن نتيجتها الحتمية هى أن مصدر القرآن بَشرى أرضى ، وليس سماوياً إلهياً . وهذا الباطل مطلب مهم عند خصوم الإسلام قال به كثير من المستشرقين والمبشِّرين ومنهم مَن كان أستاذاً لطه حسين حتى بعد حصوله على الدكتوراة من باريس كعبة الدكتور طه ومثله الأعلى فى الحياة .

* *

● موقف طه حسين من العروبة ولغتها :

عرفنا موقف طه حسين من الإسلام واستخفافه به وسخريته منه ، وكراهيته إياه وكيده له . ونوجز الحديث فيما يأتى عن موقفه من العروبة ولغتها وتراثها ، مع الإشارة إلى سبب خاص قد حمله على هذا الموقف ، فضلاً عن السبب العام الذى أشرنا إليه من قبل وهو التمهيد للحضارة الغربية لتفرض سلطانها على مصر باعتبارها تمثل مركزاً إسلامياً فريداً بتاريخها الإسلامى العريق ، وكثافتها البَشرية ، وما فيها من منابع العلوم والمعارف الإسلامية .

وموقف طه حسين من العروبة ولغتها لايقل خطورة وشناعة عن موقفه من الإسلام الذى سجلناه فيما تقدم .

● عروبة زائفة :

وأول ما يفجؤك من أراجيف طه حسين عن العروبة ادعاؤه أنها عروبة زائفة مزوَّرة لا أصل لها فى الواقع ، ولا سند لها من التاريخ . وأن مَنْ يُسمَوْن عرباً - قديماً وحديثاً - جموع من الناس لم يكونوا يعرفون لهم أصلاً سلالياً إلى أن كذب اليهود عليهم كذبة لحاجة فى أنفس اليهود ، فصدَّقوها وقالوا : نحن عرب ؟!

والموضوع فى إيجاز : تحدث القرآن أكثر من مرة عن هجرة إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر وأبيه إبراهيم إلى مكة . وأن أباه تركه وأمه عند البيت الحرام ، ودعا لهما بالخير والنماء . وقد جاء ذلك فى سورة إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) ابراهيم : ٣٧

واضح من السياق أن إبراهيم دعا لولده إسماعيل وأمه بأمرين :

الأول : أن يسوق الله إليهم عشيرة من البَشر تؤنسهم ؛ لأنهما كانا وحيدين بمكة .

والآخر : أن يرزقهما الله من الثمرات .

ثم جاء فى سورة البقرة ما يؤكد أن إسماعيل ظل بمكة فى رعاية الله حتى بلغ أشده وساعد أباه فى بناء الكعبة : ﴿ وَإِذْ يَرفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ (١) .

هذا .. وقد تقبل الله دعاء إبراهيم عليه السلام حين ترك ابنه وأمه بوادٍ غير ذى زرع :

* فرزقهم من الطيبات وفجَّر بئر زمزم يتدفق ماؤها عذباً زلالاً سلسبيلاً .

* ثم ساق إليهم قبيلة « جرهم » اليمنية فأقامت بنفس المكان الذى أقام فيه إسماعيل لما رأوا أسباب الحياة التى نشطت فى هذا الوادى . وتزوج إسماعيل من قبيلة جرهم ، وتعلَّم اللغة العربية بطول المعاشرة لهم ، ونسى اللغة العبرانية لغة أبيه الخليل عليه السلام .

هذه الحقائق كلها ، وبعضها ثابت بالقرآن القطعى الدلالة والثبوت ، ينكرها طه حسين ، ويقول : إنها كذبة يهودية أو أسطورة من أساطير التاريخ القريب من الإسلام ؟!

وإليك قوله بالحرف معلقاً على هذه القصة - قصة الهجرة إلى مكة :

« ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات الصلة بين : اليهود والعرب من جهة . وبين : الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى .. » ؟! (ص ٢٦) .

---

(١) البقرة : ١٢٧

والذى نريد تسجيله الآن أمام القارىء أن المؤلف (طه) يرمى القرآن بالكذب ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ ، إن يَقُولُونَ إلّا كَذِباً ﴾ (١) يرميه بالكذب - هنا - فالهجرة لم تحدث ؟!

ورماه بالكذب من قبل حين ادّعى أن ورود ذكر اسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى القرآن لا يكفى فى إثبات وجودهما التاريخى ؟!

● القصة من اختراع اليهود (؟!) :

يجزم طه حسين أن قصة الهجرة بشقيها :

* هجرة إسماعيل وأمه إلى مكة .

* وهجرة قبيلة جرهم اليمنية إلى مكة كذلك .

يرى طه أنها قصة مكذوبة مخترعة ، ثم يمضى فى باطله وهذيانه فيقول : إن اليهود الذين فى شمال شبه الجزيرة العربية (يثرب - المدينة) هم الذين اخترعوها دهاءً ومكراً ، لأنهم نزلوا أرضاً ليست لهم ، فدارت الحروب بينهم وبين أصحاب الأرض . فاهتدى اليهود لاختراع هذه القصة ليوهموا أصحاب الأرض أن بينهم وبين اليهود صلة . فاليهود أبناء إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . وأصحاب البلاد هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم ، فهما - إذن - أبناء أعمام ؟! يقول طه فى (ص٢٦) :

« فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبّت بين هؤلاء اليهود المستعمِرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد . وانتهت إلى شئ من المسالمة والملاينة ، ونوع من المحالفة والمهادنة .فليس يبعد أن يكون هذا الصلح ، الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد (هو) منشأ هذه القصة ، التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام » (؟!) .

*

---

(١) الكهف : ٥

والحقيقة التى يجب تسجيلها هنا هى : أن هذه القصة المكذوبة سجلت فى القرآن لأهداف دينية وسياسية ، فالأهداف الدينية هى إثبات الصلة المادية بين الإسلام والقرآن من جهة ، واليهودية والتوراة والنصرانية والإنجيل من جهة أخرى ؟!

أما الأهداف السياسية فهى تقوية شوكة الإسلام بأهل الديانتين القديمتين - اليهودية والنصرانية - فى مواجهة الحروب التى كان يشنها العرب الوثنيون ضد الإسلام ؟! يقول المؤلف فى (ص ٢٧) :

« لكن هذه الصلة الدينية - يعنى بين الأديان السماوية - معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب - يعنى المسلمين منهم - وبين أهل الكتاب . فما الذى يمنع أن تُستغل هذه القصة : قصة القرابة المادية بين العرب العدنانيين وبين اليهود » (؟!) .

وقبل هذا بقليل قال : « ولكن الشئ الذى لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام ، وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد ، وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود » (؟!) .

فالإسلام عند طه حسين تصيَّد هذه الأكذوبة أو الأسطورة وسجَّلها على أنها حقيقة واقعة ؛ لأنه محتاج إليها لتحقيق الأهداف التى أشرنا إليها .

* *

● الصوت والصدى :

وما قاله طه حسين هنا صدىً لصوت أحد أساتذته صاحب « ذيل مقالة فى الإسلام » .. وإليك قوله الذى يردده طه مع شئ من التصرف : « ولما ظهر

الإسلام رأى محمد -ﷺ- المصلحة فى إقرارها فأقرها . وقال للعرب : إنه إنما يدعوهم إلى مِلّة جدهم هذا الذى يعظمونه من غير أن يعرفوه » (؟!) .

قارن بين كلام طه وكلام صاحب « الذيل » تجد المعنى واحداً ، سوى أن صاحب الذيل جاهر صراحة بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ . أما طه فعدل عن هذه المجاهرة خوفاً من سوء العواقب ولضمان رواج فكره ؛ لأنه كان يكتب فى بلد إسلامى للإسلام فيه عزة وقوة وله فيه أوس وخزرج .

* *

● أكذوبة روَّج لها ثلاثة أطراف (؟!) :

وينتهى طه الأراجيف إلى أن هذه الأكذوبة - حسب زعمه وزعم أساتذته - وجدت رواجاً لها عند ثلاثة أطراف فاكتسبت صفة الحقائق المسلَّمة . وتلك الأطراف هى :

١ - اليهود ليُمكِّنوا وجودهم فى البلاد التى استعمروها بادعاء قرابة نَسَبِيَّه بينهم وبين أهل البلاد (؟!) .

٢ - الإسلام - نفسه - لأنه رأى فى إثبات الأكذوبة مصلحة للدعوة الجديدة على النحو الذى شرحناه من قبل (؟!) .

٣ - قريش - نفسها - لأنها كانت قد حظيت بمدنية رائعة فى القرن السابع الميلادى ، وكانت تبحث لها عن أصل تاريخى أسطورى تستند عليه لدعم سلطانها فوجدته فى هذه الأكذوبة فقبلتها تواً وبلا مناقشة ؟!

لم نرد أن نطيل بذكر كلام الدكتور طه فى مزاعمه الأخيرة التى لخصناها وكلامه موجود فى (صفحات : ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠) من كتابه « فى الشِعر الجاهلى » .

* *

● هدفان عام وخاص :

اجتهد طه أن يخدع الناس بأن العروبة وصف زائف مزوَّر . ولهذه الادعاءات الماكرة سبب عام حاصله : تحطيم العروبة لأنها بماضيها وحاضرها كانت تقف عقبة كؤوداً أمام الحضارة الغربية ، وإذا كانت العروبة زيفاً وزوراً فكذلك اللغة المنسوبة إليها . وقد عرفنا من قبل جهود طه هذا فى تدمير اللغة العربية وتشويه جمالها .

أما السبب الخاص فهو ارتباط العروبة ولغتها بالإسلام . وقد عرفنا من قبل موقف طه من الإسلام وكراهيته له . والحقيقة أن طه إذا هاجم الإسلام فإنه يهاجم فى الوقت نفسه العروبة ولغتها ، وإذا هاجم العروبة ولغتها فإنه فى الوقت نفسه يهاجم الإسلام . وإذا هاجم الأزهر فإنه يهاجم - ضمناً - الإسلام من حيث أنه إسلام ، والعروبة ولغتها لارتباطها بالإسلام .

* *

● سلخ مصر عن العروبة والإسلام :

ومن مظاهر العداء المزدوج للعروبة والإسلام عند طه حسين محاولاته مرات أن يسلخ مصر عن العروبة والإسلام ، ويقطع صلتهما بها ، وقد تضمن هذه المحاولات كتاب طه حسين « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى ظهر لأول مرة عام ١٩٣٨ . وادَّعى فيه أن مصر ليست عربية ولا شرقية . وأن الإسلام لم يؤثر فى عقول المصريين فظلت غربية وإن عاش الإسلام بين ظهرانيها أحقاباً طويلة ويقول : إن مصر ظلت كارهة للفتح العربى - يعنى الإسلامى - كما كانت كارهة لكل فتح أو غزو أجنبى قبل الإسلام ، وأنها عملت على صهر المغيرين عليها ولم تهدأ إلا باسترداد هويتها الأصلية فى عهد أحمد ابن طولون (؟!) .

ويقول : إن حضارة مصر الحديثة لا تزدهر إلا بعودتها إلى تاريخها القديم قبل الإسلام - يعنى الحضارة الفرعونية - واستلهام أصالتها منها (؟!) وأن

مصر لا تنتمى لا إلى الشرق القريب (بلاد العرب) ولا إلى الشرق البعيد . لا جغرافياً ولا حضارياً ، وإنما هى تنتمى إلى دول حوض البحر الأبيض (أوروبا الجنوبية الغربية) انتماءً جغرافياً وسلالياً وثقافياً وحضارياً (؟!) وأن أى تفكير لقيام نهضة مصرية معاصرة يجب أن يضع فى الاعتبار هذه الحقائق .

ويقول : إن بواكير هذه النهضة الحديثة قامت على حضارة أوروبا فى نظام الحكم والإدارة وطرق المعيشة ، وأنها لم تُستَمد من تعاليم الإسلام ولا نظمه (؟!) .

ويقول : إن الدين واللغة لا يصلحان لقيام وحدة بين الشعوب وإنما الذى يصلح هو تبادل المنافع بين الشعوب ، ويسخر من أحد شيوخ الأزهر الذى أدلى بحديث إذاعى قال فيه : إن أى وحده للمسلمين يجب أن تكون وجهتها « القِبْلة » - يعنى الكعبة - هذا الحديث كان موضع استنكار من طه حسين ، لأن الإمام الأكبر ربط بين الوحدة الإسلامية وبين الكعبة التى هى رمز لوحدة العقيدة ، وعند الدكتور طه أن الدين شئ ، وأن السياسة شئ آخر . وأن الفصل بين الدين والدولة هو المبدأ الحديث الذى رقى إليه الفكر المعاصر ، وأن بعض ساسة المسلمين القدماء قد فطنوا إلى هذا المبدأ وطبقوه عملياً ... (؟!) .

هذا تلخيص سريع وأمين لبعض ما ورد فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » للدكتور طه حسين ، وأرانى الآن مديناً أو مطالَباً أمام القرّاء بذكر نماذج من كلام طه لتكون خير شاهد وأصدق برهان على أننا لم نختلق على الرجل شيئاً مما لخصناه وليطمئن قلبه إلى صدق ما نقول ، وتوخياً لعدم الإطالة سنسوق النماذج دون تعليق مكتفين بما تقدم فى التلخيص :

١ - يقول الدكتور طه فى كتابه المتقدم ذكره (ص ١٦) :

« وأنا من أجل هذا مؤمن بأن مصر الجديدة لن تُبتكر ابتكاراً ، ولن تُخترع اختراعاً ، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة - يقصد الفرعونية - ..... ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر فى مستقبل الثقافة فى مصر إلا على ضوء ماضيها البعيد » ؟!

٢ - ويقول ملخصاً لفقرة وصف فيها العقل المصرى بأنه عقل أوروبى غربى : « إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشئ فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط . وإن تبادل المنافع - على اختلافها - فإنه يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط (ص ٢١) ؟!.

ويقول فى (ص ٢٥) : « ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة ، لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ، ولا قواماً لتكوين الدول .. فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد قد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للمُلْك ، وقواماً للدولة » .

ويقول فى (ص ٢٧) : « والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها - مصر - عن السلطان العربى بعد الفتح - يعنى الفتح الإسلامى لمصر - لم يبرأ من السخط ، ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها - مصر - لم تهدأ ، ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون ، وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده » [١] .

ويقول فى نفس الصفحة : « فالمسلمون إذن قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة ، وهو : أن السياسة شئ . والدين شئ آخر » [٢] ؟!

ويقول فى نفس الموضع : « فنلاحظ مرة أخرى أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى ، ولا بالشرق البعيد قليلاً ولا كثيراً ... » ؟!

*

---

(١) يقصد انتهاء حكم العرب الفاتحين .

(٢) يقصد فصل الدين عن الدولة ، وهو مبدأ علمانى ابتدعته الثورة الفرنسية .

● سؤال وجواب :

ويسأل الدكتور طه حسين سؤالاً فيقول : « وجاء الإسلام وانتشر فى أقطار الأرض ، وتلقته مصر لقاءً حسناً ، ... فاتخذته لها ديناً ، واتخذت لغته العربية لها لغة . فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى - يعنى الفرعونية - وهل جعلها ذلك أمة شرقية بالمعنى الذى يُفهم من هذه الكلمة الآن » (ص٣١).

ثم يجيب عليه فى حزم وبكلمة واحدة فيقول : « كلا » ؟!

* *

● إصراره على فرض الحضارة الأوروبية :

وفى هذا المعنى يقول (ص ٤١) : « وليس فى الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذى يستمتع بها عليه الأوروبيون » ؟!

ويقول فى نفس الموضع : « نظام الحكم عندنا أوروبى خالص ، نقلناه عن الأوروبيين نقلاً فى غير تحرج ولا تردد . وإذا عبنا أنفسنا بشئ من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء فى نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية » .

ويمتدح الدكتور طه حسين فريقاً من حكام مصر ؛ لأنهم عدلوا بها عن النظام الإسلامى إلى النظام الأوروبى فيقول :

« فالذين أرادوا أن يحكموا مصر حكماً مقيَّداً بالعدل ... كانوا يتخذون لحكمهم قيوداً أوروبية لا شرقية ، فهم قد أنشأوا المحاكم الأهلية وشرَّعوا القوانين المدنية ، واستقوا ذلك من النظم الأوروبية لا من النظم الإسلامية ، وهم قد وضعوا النظم الإدارية والاقتصادية وذهبوا فى ذلك مذهب الأوروبيين ، بل

نقلوا ذلك نقلاً عن الأوروبيين ولم يستمدوه مما كان مألوفاً عند ملوك المسلمين وخلفائهم » (ص٤٢) .

* *

● طه حسين والالتزام بالحضارة الأوروبية :

فى النص الذى سننقله عن طه حسين بعد هذا ما يشبه الإخبار باتفاقية عُقدت بين مصر وبين أوروبا التزمت فيها مصر بأن تحذو حذو أوروبا فى كل شئ . وترى مصر فى كلام طه حسين جاثية على ركبها كالعبد الذليل يركع أمام سيده المهيب المطاع .فاسمع إلى كلام الدكتور ثم تأمل ما فيه من أمعية ذليلة :

يقول فى (ص ٤٥) : « ولم يقف أمرنا عند هذا الحد ، بل نحن قد خطونا خطوات أبعد جداً مما ذكرت . فالتزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم ، ونسير سيرتها فى الإدارة ، ونسلك طريقها فى التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوروبا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ، ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلاّ التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالَم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والإدارة والتشريع » ؟!

يا تُرى .. أليست هذه عبودية لأوروبا يمجدها الدكتور طه حسين . إن ديدن هذا الرجل أن يدعو إلى الحرية ما استطاع إذا ووجه بالنظم الإسلامية والفكر الإسلامى والتشريع الإسلامى ؟! وأن يدعو إلى التبعية والعبودية إذا واجه الناس بالنظم الغربية والثقافة الغربية ، بل والإباحية الغربية ، أفلا تراه يدخل تحت الوصف الذى ذكره اللّه فى كتابه العزيز ناعياً به فريقاً من خلقه : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1] .

* *

(١) الزمر : ٤٥

● موقف طه حسين من الأزهر :

كان الأزهر هو العقبة الثالثة أمام الزحف الحضارى الغربى على مصر . وفى إطار الدور الذى قام به طه حسين فى التمهيد لتدفق الحضارة الغربية على بلاد الإسلام ، حارب الأزهر كما حارب الإسلام والعروبة ولغتها من قبل . فاتحاً بذلك أوسع الأبواب أمام الحضارة الغربية ، وقد أشرنا من قبل مرات لموقف الاستعمار وعملائه من السياسيين ، والأدباء والمفكرين والزعماء من الأزهر ، ومحاولة النَيْل منه وإنشاء دور للعلم تناوئه وتعزله عن الحياة .

وطه حسين حارب الأزهر باعتبارين كلاهما يساند الآخر ويقويه ، فهو من جهة موتور شخصياً من الأزهر ؛ لأن الأزهر كشف مبكراً منذ كان طه حسين طالباً فيه عن خبايا هذا « الرجل » وشرود فكره ، وأن الأزهر وقف من « كفريات » طه فى كتابه « فى الشعِر الجاهلى » موقفاً أملاه عليه واجبه نحو الإسلام .

ومن جهة أخرى حارب الدكتور طه حسين الأزهر إرضاءً لسادته من المستعمرين والمستشرقين والمبشِّرين ، وليمهد الطريق للحضارة التى تعادى الإسلام والمسلمين ، والعرب والعروبة ، والأزهر وما يبثه من علوم فلا عجب - إذن - أن يجند طه حسين كل طاقاته الفكرية لتحطيم الأزهر وعلومه ومعارفه وثقافاته . وكانت حرب طه حسين للأزهر تتخذ عدة منافذ :

* منها كتبه التى ألّفها مثل الأيام ، ومستقبل الثقافة فى مصر ، الذى قدمنا منه نماذج فيما سبق .

* ومنها مقالاته التى كان ينشرها فى الصحف والمجلات ، ومن أبرزها مجموعة المقالات التى نشرها فى الخمسينات ودعا فيها إلى تطوير الأزهر وحققت الثورة عام ١٩٦١ ما كان يدعو إليه الدكتور طه فأصدرت قانون تطوير الأزهر الذى أثبتت التجربة أن مساوئه تفوق محاسنه عشرات المرات . والدعوة إلى تطوير الأزهر نشأت فى أروقة الاستعمار الإنجليزى منذ بداية القرن العشرين ، وقد تقدم كلام اللورد « كرومر » فى هذا الشأن مرات فى هذه الدراسة .

* ومنها أحاديثه الخاصة التى كان يُدلى بها فى مجالسه وبين مريديه ، ونحن - هنا - لا نريد أن نطيل بل سنكتفى بسرد تلخيص موجز لمواقف طه حسين من الأزهر ، ثم نحاول أن نذكر من كلامه - بعد التلخيص - أدلة سريعة من أقواله تؤكد صدق ما نقول ..

يمثل الأزهر عند الدكتور طه حسين جسماً غريباً فى تكوين الدولة ، وعلامة بارزة من علامات التخلف ، فعلومه يجب أن توضع فى متاحف التاريخ سواء أكانت تفسيراً أو حديثاً أو فقهاً أو أصول فقه أو لغة وأدباً ، ومناهجه عقيمة وبخاصة علم مصطلح الحديث وما فيه من عنعنة وحدثنه (حدَّثنا فلان عن فلان) ومتون وشروح وحواش وتقريرات وتجريدات [1] ، وعلماء الأزهر - عنده - غير أمناء على تعليم اللغة العربية وآدابها وغير صالحين لتولى المناصب العامة فى المجتمع ، والأزهر نفسه بمثابة دولة داخل الدولة يتخذ القرار فيمضى ولا سُلطة لأحد عليه . لذلك فإن طه حسين يدعو الدولة لتقليص ظل الأزهر فتقف مهمته عند تخريج الوعاظ . أما تعليم اللغة العربية فيجب أن يُنتزع من الأزهر ليقوم بتعليمها الأفنديات ، كما يجب أن يُعزل الأزهر عن الدوائر القضائية ، وأن يُسند القضاء إلى خريجى كليات الحقوق ، وعلى وزارة المعارف- فى عهده - أن تشرف إشرافاً كاملاً على مناهج التعليم فى الأزهر وإدارته ، وبخاصة المعاهد الأزهرية ، فيجب أن تخضع لإدارة وزارة المعارف . وخريجو الكليات الأزهرية يجب حصر عملهم فى الوعظ فحسب . ومن عيوب الأزهر عند طه حسين أنه يُخرِّج شباباً كارهاً للتطور على سنن الحضارة الغربية مؤمناً كل الإيمان بثقافة العصور المظلمة والقديم البالى ، ومن كلام طه حسين عن شباب الأزهر : « شبابنا الأزهريون لا يتعلمون كما يتعلم الناس ، ولا كما ينبغى أن يتعلم الناس » ؟!

*

(١) المتون نصوص علمية أشبه ما تكون بالقوانين الكلية . أما الشروح وما عُطِفَ عليها فهى تفسيرات للمتون .

● شواهد من كلام طه :

والآن : نضع بين يدى القراء شواهد من كلام الدكتور طه حسين على ما لخصناه من مواقفه تجاه الأزهر ؛ والنصوص الآتية منقولة من كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » :

١ - « وألا يكون الأزهر دولة فى داخل الدولة ، وسلطاناً خاصاً يستطيع أن يطاول السلطان ويناوئه ، كما هى الحال الآن إذا بقيت هيئة كبار العلماء » (ص ٩٥) [١] .

٢ - وقال : « فلا بد أن يكون للدولة ، أو بعبارة أدق وأوضع ، لا بد أن يكون لوزارة المعارف إشراف دقيق على التعليم الأوّلى والثانوى فى الأزهر ؛ لأن وزارة المعارف هى عَيْن الدولة على هذين النوعين من التعليم » (ص٩٦) .

٣ - وقال مؤكداً ما سبق : « وهناك شىء آخر يجعل حاجة الأزهر إلى إشراف الدولة على تعليمه الأوّلى والثانوى ضرورة ماسة فى هذا الطور من أطوار الحياة المصرية ، وهو أن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة : تمثل العهد القديم والتفكير القديم » (ص ٩٨) .

ويقول مستطرداً : « شىء آخر لا بد من التفكير فيه ، والطب له ، وهو أن هذا التفكير الأزهرى القديم ، قد يجعل من العسير على الجيل الأزهرى الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناهما الأوروبى الحديث » (ص ٩٩) .

*

---

(١) استجابت الثورة فألغت هيئة كبار العلماء مع صدور قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١

● تعقيب :

ينبغى أن يتذكر القارىء ما مَرَّ به مرات من أن الوطنية والقومية سلاحان استعملهما الاستعمار لتفتيت الوحدة الإسلامية . ولذلك كان الأزهر يرفض هاتين الفكرتين بالمعنى الذى تريده أوروبا من كل من القومية - وهى التعصب للأجناس ، والوطنية - وهى التعصب للأماكن بحدودها الجغرافية ، وقد أشار طه حسين نفسه فى (ص ٩٩) من كتابه « مستقبل الثقافة » أن أحد شيوخ الأزهر أذاع حديثاً بالراديو فى أحد المواسم الدينية قال فيه للأمة : « إن محور القومية يجب أن يكون القِبْلة المطهَّرة » وعلّق الدكتور طه حسين على هذا القول فقال : « ولكن الشباب الأزهريين يجب أن يتعلموا فى طفولتهم وشبابهم أن هناك محوراً آخر للقومية ... وهو محور الوطنية التى تحصرها الحدود الجغرافية الضيقة لأرض الوطن » ؟! (ص ٩٩) .

فالدكتور طه جعل القومية القائمة على اعتبار الجنس هى الوطنية القائمة على اعتبار المكان مثل : مصر - سوريا - العراق ، وهو بهذا يدعو إلى تفتيت القومية الإسلامية التى نادى بها شيخ الأزهر فى ذلك الوقت ، وقوامها الاتفاق فى الدين ، وتحويلها إلى وحدات صغيرة (أوطان) مفصولة العرى . وهذا هو هدف أوروبا الذى مهَّد له الدكتور طه حسين . ودعا الدولة للتدخل فى شئون التعليم فى الأزهر لإزالة هذه العقبات أمام التدفق الحضارى الغربى على مصر ، وتهيئة عقول أجيال الأزهر لقبول مبادىء الاستعمار التى أريد بها الإضرار بالإسلام والمسلمين ؟!

* *

● إبعاد الأزهر عن اللغة العربية :

وفى هذا المعنى يقول الدكتور طه حسين :

« إن اللغة العربية ليست مِلْكاً لرجال الدين (الأزهريون) يُؤْمَنون وحدهم عليها ... ويتصرفون وحدهم فيها ، ولكنها مِلْك للذين يتكلمونها جميعاً ...

وكل فرد من هؤلاء الناس حر فى أن يتصرف فى هذه اللغة تصرف المالك .. وإذن فمن السخف أن يُظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر الشريف والأزهريين » ؟! (ص . ٢٩) ؟! .

ثم يقول : « .. لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعاً ، وفيهم المسلم وغير المسلم » ؟! (ص ٢٩١) [١] .

ويقول : « فالذين يزعمون أن الأزهر وحده هو الأمين أو هو الذى يجب أن يكون أميناً على اللغة العربية إنما يرون سخفاً من الرأى ، ويقولون سخفاً من القول » ؟! (ص٢٩١) .

ثم يقول : « وإذن فليس على الدولة بأس أن تتولى هى تعليم اللغة العربية والإعداد لهذا التعليم ، وليس عليها جُناح أن تجدد هذا التعليم وتجعله ملائماً لحاجات الحياة ... فى العصر الحديث » ؟! (ص ٢٩٢) .

* * *

● استعداء الحكام على الأزهر :

كان الدكتور طه وهو يكتب ما كتب يتوقع أن الدولة لن تحقق مطالبه فراح يوغر صدور الحكّام على الأزهر ، ويضطرهم اضطراراً لتحقيق مطالبه . وفى ذلك يقول :

« .... ولكن الغريب أن هذه الحقائق اليسيرة الأوّلية لم تتضح بعد للمشرفين على الأمور فى مصر ، أو هى قد اتضحت فى قلوبهم وعقولهم ، ولكنهم لا يجدون الشجاعة على مواجهتها والإقبال عليها فى جد وحزم ، فهم يخافون من الأزهر كلما ذُكِر تعليم اللغة العربية (؟!) وهم يخافون من الأزهر كلما

---

(١) السر فى دعوة د . طه حسين لإبعاد اللغة العربية عن الأزهر هو ما تقدم من إخضاعها لأوهام الذين طالبوا بإصلاحها وتحطيم قواعدها ودلالاتها .

ذُكِر إصلاح اللغة العربية ، بل هم يخافون من الأزهر كلما ذُكِرت اللغة العربية (؟!) كأن الأزهر سبع من هذه السباع الضارية قد قام دون اللغة العربية فاغراً فاه ، مهيئاً أظافره ، لا يسمح لأحد أن يدنو منها ، أو يمسها بالإصلاح .. » ؟!(ص ٢٩٣) .

*

● كلام لا يصدر إلا عن موتور أو عميل :

هذا الكلام الذى قاله الدكتور طه حسين فى الفقرة السابقة لا يصدر إلا عن أحد رجلين :

إما رجل موتور من الأزهر يريد أن يثأر لنفسه بالوشاية ضده والتحريض عليه . وإما عميل لأعداء الأمة . ومن المؤسف حقاً أن الوصفين اجتمعا فى طه حسين ، فهو موتور وعميل فى آن واحد لذلك لم يخط قلمه إلا سماً زعافاً .. ؟!

والدكتور طه حسين - بعد ما تقدم - يريد حصر مهمة الأزهر فى التعليم الدينى فحسب ، ويلوم الدولة لأنها سمحت للأزهر بأن يُخرِّج معلمين للغة العربية فى معاهده ثم يجعلهم معلمين للغة العربية فى مدارس الدولة . ويرى الدكتور أن فى هذا خطراً على مدارس الدولة وعلى سُلطان الدولة معاً . وبعد كلام طويل فى هذا الشأن يقول :

« وقد أشرتُ من قبل إلى أن نظام هيئة كبار العلماء يمحو أو يقيِّد على أقل تقدير سُلطان الدولة تقييداً خطراً إذا تخرَّج المعلمون (يعنى معلمى اللغة العربية) من الأزهر ، فيكفى أن تُخْرِج الهيئة أحد هؤلاء المعلمين من زمرة العلماء الدينية ليكون وزير المعارف ملزماً بفصله من منصبه . وفى هذا محو لهذه الحرية العقلية التى هى أول ما يجب للمعلم من الحق ، وفيه كما يظهر إلحاق لمدارس الدولة ولوزير المعارف معها بسلطان الأزهر الشريف ... وأن

مدارس الدولة ستكون تابعة تبعية عقلية للأزهر ، والأزهر كما نعلم مضطر إلى المحافظة ورعاية التقاليد .. » ؟! (ص ٣٦٧) .

*

● الهدف من هذا الكلام :

لا يخفى على القارىء الفطن هدف طه حسين من هذا الكلام فهو لا يهمه سُلطان الدولة الذى تحطمه قرارات هيئة كبار العلماء فيما يختص بالمنحرفين من خريجى الأزهر . ومع هذا فقد بدا حريصاً فى كلامه على سلطان الدولة ، والغرض من هذا حمل الدولة على تنفيذ مطالبه الحقيقية ، ومنها :

* إن رفع يد هيئة كبار العلماء عن معلمى اللغة العربية فى مدارس الدولة يتيح الفرصة للمنحرفين بالاستمرار فى هيئة التدريس ولو كتب النصوص القرآنية لتلاميذه بالحروف اللاتينية أو كتبها بالحروف العربية كما تُنطق ، وهى الطريقة التى كان يُروِّج لها طه حسين نفسه ، فيكتب : محمد رسول اللّه – مثلاً : « موحا مما دون راسولو اللاهى » وفى هذا تحريف للقرآن ، وإلحاد فى أسماء اللّه الحسنى . وطه هنا يطالب بحماية الانحراف والمنحرفين (؟!) ومنها أن طه حسين يخشى على تلاميذ المدارس المدنية أن يتأثروا بعقائد الأزهر ، مثل الأصالة ، والمحافظة على القيم الإسلامية ومن أجل هذا علا صياحه ، ودوّى نعيقه ؟!

وقبل أن نترك كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » أدعو القارىء إلى أن يقرأ الفقرة رقم (٥) منه ، والتى تبدأ من (ص ٤٣٦ وتنتهى عند ص ٤٤٥) فإنه سيرى الدكتور طه حسين يعترف ببعض الفضل للأزهر ويثنى عليه بعض الثناء ، ثم يعود إلى طبيعته العدائية له فيطالب الدولة مرة أخرى بالإشراف الدقيق على الأزهر ، يلح فى هذه المطالبة ، كما يدعو إلى أن يتولى تعليم اللغة العربية خريجو كلية الآداب أو دار العلوم لا كلية اللغة العربية بالأزهر (؟!) وعلى طلاب الأزهر إذا أرادوا أن يكونوا معلمين للغة العربية فعليهم أن

يلتحقوا بكلية الآداب أو دار العلوم أو معهد التربية ، وكذلك إذا أرادوا أن يعلّموا التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الكيمياء . وإذا أرادوا أن ينهضوا بأعباء القضاء أو الطب أو الهندسة فعليهم أن يلتحقوا بكليات الحقوق والطب والهندسة .

ثم يحذّر الدكتور طه حسين الدولة من أن ينشئ الأزهر فى المستقبل كليات الطب والهندسة وغيرها من العلوم العملية فيقول :

« فأما أن تُنشأ فى الأزهر كليات ، وأن تمنح هذه الكليات درجات لا علم للدولة بها ، ولا سلطان للدولة عليها . ثم يُفرض الخرّيجون فى هذه الكليات على الحياة العامة فرضاً ، فهذا هو الذى لا يُفهم ولا يمكن أن يُستساغ فى بلد متحضر » (ص ٤٤٢) .

ويحق لنا الأن أن نتساءل :

لماذا يفرّق طه حسين بين الدولة وبين الأزهر ؟ أليس الأزهر مصرياً ؟ أليس الأزهر مؤسسة من مؤسسات الدولة فى مصر ؟ أليس القائمون على الأزهر من أبناء مصر ؟ فلماذا هذه التفرقة يا تُرى ؟!

والأزهر أليس هو صاحب الفضل على طه حسين ، ولولا العلم الذى تلقاه فيه لما استطاع أن يحصل على أية درجة علمية سواء داخل البلاد أم خارجها ؟ . وطه حسين إذا كان حريصاً على سلطان الدولة ويطالب بإبعاد الأزهر عن سلطانها فلماذا سخّر قلمه وحياته لتكون الدولة وشعب مصر دُمىً فى أيدى أوروبا سياسياً وعلمياً وثقافياً ؟ إنه يطالب بتحرير العقل المصرى من الخضوع والتبعية للأزهر وفى الوقت نفسه يقدّم العقل المصرى هدية للحضارة الغربية تصوغه وتشكّله كيف تشاء ؟ أهذه هى الوطنية ؟! أو هذه هى القومية ؟! أو هذه هى الحرية ؟!

لقد عاش طه حسين عميلاً للغرب ، وجاسوساً علنياً لحساب الغرب ! ومات ولم تبد منه توبة يُكَفِّر بها عن سيئاته ؟!

إن فكر طه حسين مسئول - الآن - إلى أبعد مدى عن الانحرافات الفكرية والتشريعية ، بل و « العقائدية » التى يموج بها المجتمع المصرى الحديث تحت وطأة التفكير العلمانى المدمر ، وما سطره الدكتور طه من كتب ومقالات موجودة ، فنحن لم نفتر عليه ، وإنما الرجل هو الذى جنى على نفسه ، وما باح به فى كتبه ليس هو كل شئ من فكر طه حسين ، بل كان فى صدره أمور لم يستطع الإفصاح عنها ولكنه رمز إليها فى أبيات لأبى العلاء المعرى وضعها فى واجهة كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » . وتلك الأبيات هى :

خذى رأيى وحسبك ذاك منى على ما فىَّ من عوج وأمت ؟

وماذا يبتغى الجلساء عندى أرادوا منطقى وأردتُ صمتى

ويوجد بيننا أمد قصـــى ؟! فأموُّا سمتهم وأممت سمتى ؟

أما نحن فنقول : وداعاً يا طه .. والموعد ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَرَائِرُ ﴾ [1] وكل آت قريب .

* * *

(١) الطارق : ٩